زنقة بئر الجمل

جمعية صيانة مدينة بني خلاد

سنة النشر: 2021.

الناشر: جمعية صيانة مدينة بني خلاد.

بدعم من المركز الثقافي الألماني في تونسGoethe-Institut Tunesien

لـكُل مدينـة أو بلـدة معالمهـا التـي تُخـبر عـن تاريخهـا العريـق أو الجديـد، وتقريبًـا لـكُل مدينـة في تونـس يعـودُ تاريخهـا إلى الفـترة الوسـيطة أو الحديثـة مدينتهـا العتيقـة أو كـما نُسـميها في اللهجـة التونسـية "المدينـة العـربي". بنـي خـلاد وعـلى الرغـم مـن أنهـا مـن مُـدن الوطـن القبـلي العريقـة نسـبيًا، حيـثُ أن حضورهـا كبلـدة مُتوسـطة مـن حيـث عـدد السـكان يعـود عـلى الأقـل إلى الفـترة الحديثـة، فـإن زائرهـا اليـوم لا يعـثر بسـهولة عـلى "المدينـة العـربي" كـما هـو حال زائر مدينتي سليمان وقرمبالية المُجاورتين.

صمـدت المدينـة العتيقـة في بنـي خـلاد وسُـكانها أمـام كُل الأزمـات التـي مـرت بهـا البـلاد والمنطقـة منـذ الفـترة الحديثـة، أي الحـروب الأهليـة بـين أفـراد العائلـة الحسـينية في النصـف الأول مـن القـرن الثامـن عـشر، ثـم المجاعـات، الأوبئـة والأزمـات الاقتصاديـة التـي عاشـت عـلى وقعهـا البـلاد خـلال القـرن التاسـع عـشر، الاسـتعمار الفرنـسي واسـتحواذ المُسـتعمرين الفرنسـيين والإيطاليـين عـلى الأراضي الفلاحيـة بالمنطقـة، مُـرورًا بالحـرب العالميـة الثانيـة والمعـارك التـي دارت عـلى أرضهـا وفي سـمائها بـين المحـور تحـت قيـادة الألمـان والإيطاليـين والحلفـاء بقيـادة الأمريـكان والفرنسيين.

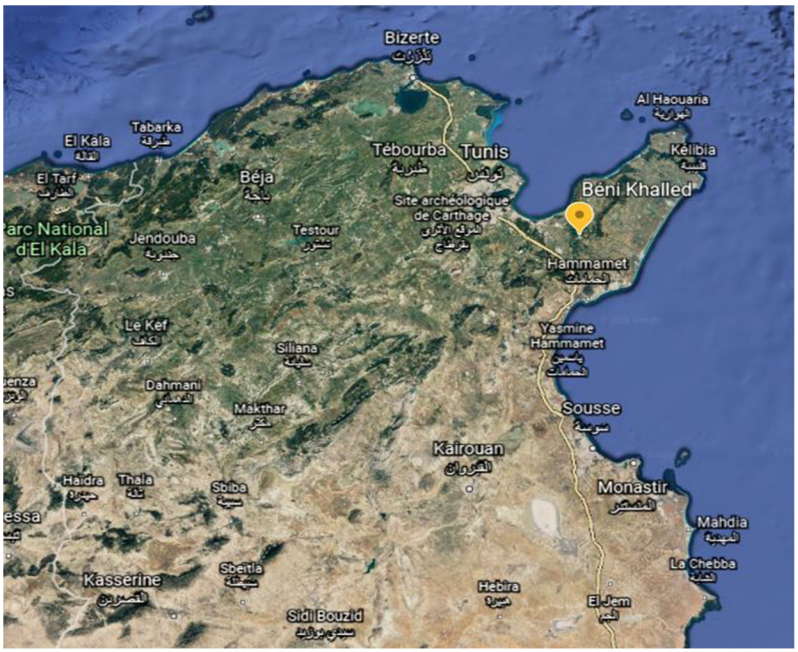

موقع بني خلاد (المصدر: جوجل إيرث)

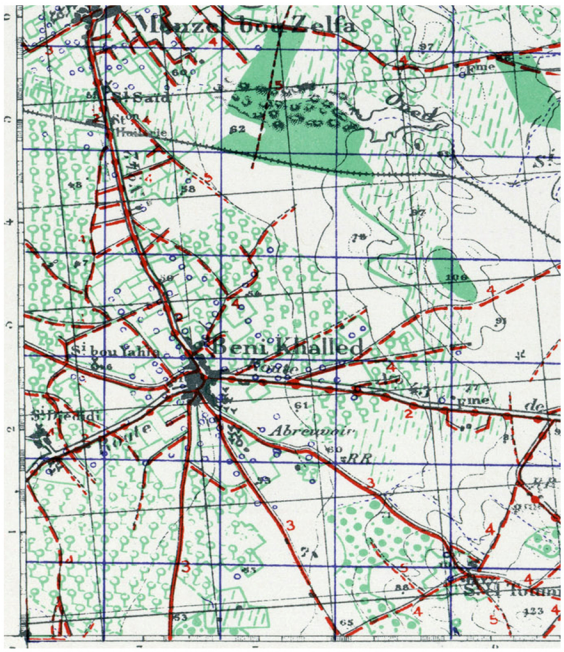

موقع بني خلاد على خريطة طيبوغرافية تعود لسنة 1943

كذلك صمدت المدينة أمام العوامل المناخية المُختلفة، حيث أن موقعها المُنخفض كان يجعلها دائمًا عُرضةً للفيضانات وتجمع سيلان مياه الأمطار التي تنحدر من المناطق المجاورة المُرتفعة، أي سيدي التومي وخصوصًا سيدي علية.

هذا الصمود أمام عوامل الزمن ونكباته، وأمام التضاريس الطبيعية والعوامل المُناخية، لم يشفع للمدينة العتيقة، فدولة الاستقلال، كانت تولي وجهها قبلة المُستقبل والرغبة في التحديث، لا وجهة التُراث والتاريخ، فلئن نجت مدينة تونس العتيقة في السبعينات من الهدم والتشويه من خلال مشروع تمديد "شارع الحبيب بورقيبة" إلى القصبة، بفضل تدخل المُثقفين واليونسكو، فإن مدينة بني خلاد العتيقة لم تنجوا، وكان مصيرها هدم غالبية أحيائها في بداية الستينات. لا نعرف الكثير عن حيثيات وخلفيات اتخاذ هذا القرار، لكن المُؤكد أن من ورائهُ لم يكونوا يدركون القيمة التاريخية والرمزية الكبيرة للمنازل والمعالم التي قرروا هدمها، لم يكونوا يدركون بأنهم يصنعون هوة كبيرة في تاريخ البلدة، وأنهم بفعلتهم هذه لم يخلقوا ساحة كبيرة وبعض المباني الحديثة، بل صنعوا حالة من الفراغ التاريخي والمعماري، وحرموا الأجيال الجديدة من التعرف على التراث المادي لمدينتهم.

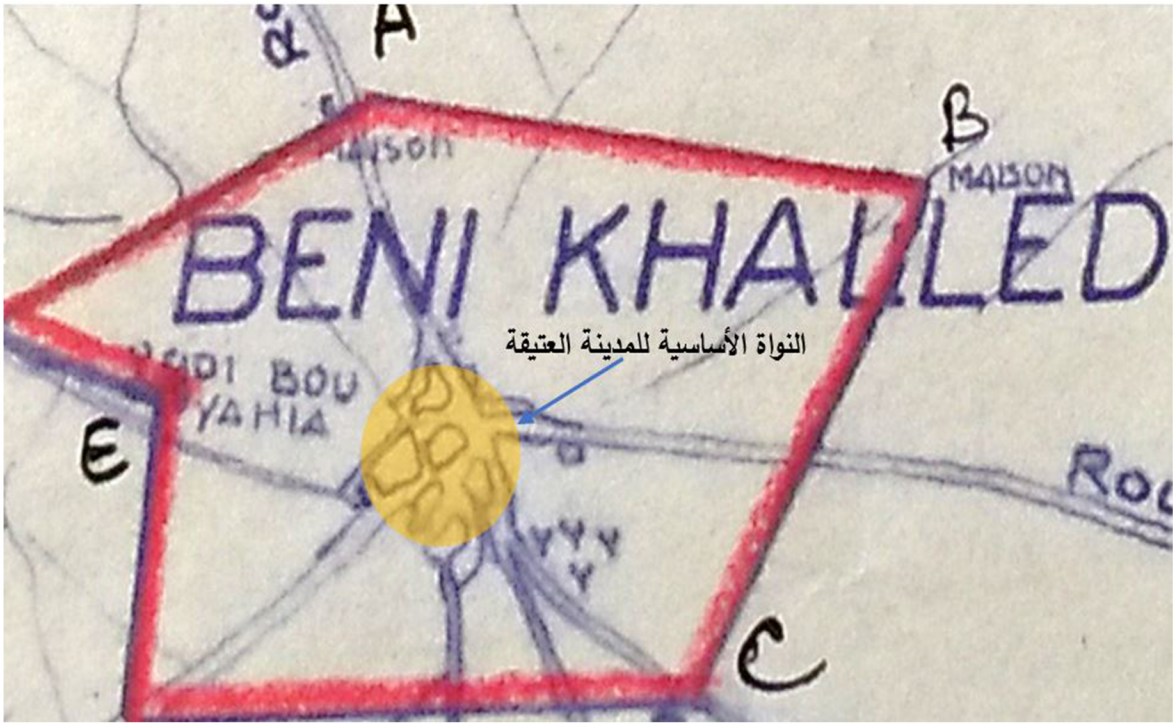

النواة الأساسية لمدينة بني خلاد العتيقة كما تظهر في مثال التهيئة لسنة 1954

لم يبقى من المدينة العتيقة أو بني خلاد التاريخية اليوم إلا الجامع القديم، بعض المنازل التي تُحيط بما يُعرف اليوم بساحة الثورة والمُركب التجاري والسوق القارة، وحيين إثنين هُما شارع القوارص الواقع على الجهة اليمنى في الطريق التي يشق المدينة، خلف الجامع القديم، ونهج أو زنقة بئر الجمل الذي سنتحدث حولهُ بأكثر تفصيل فيما يلي.

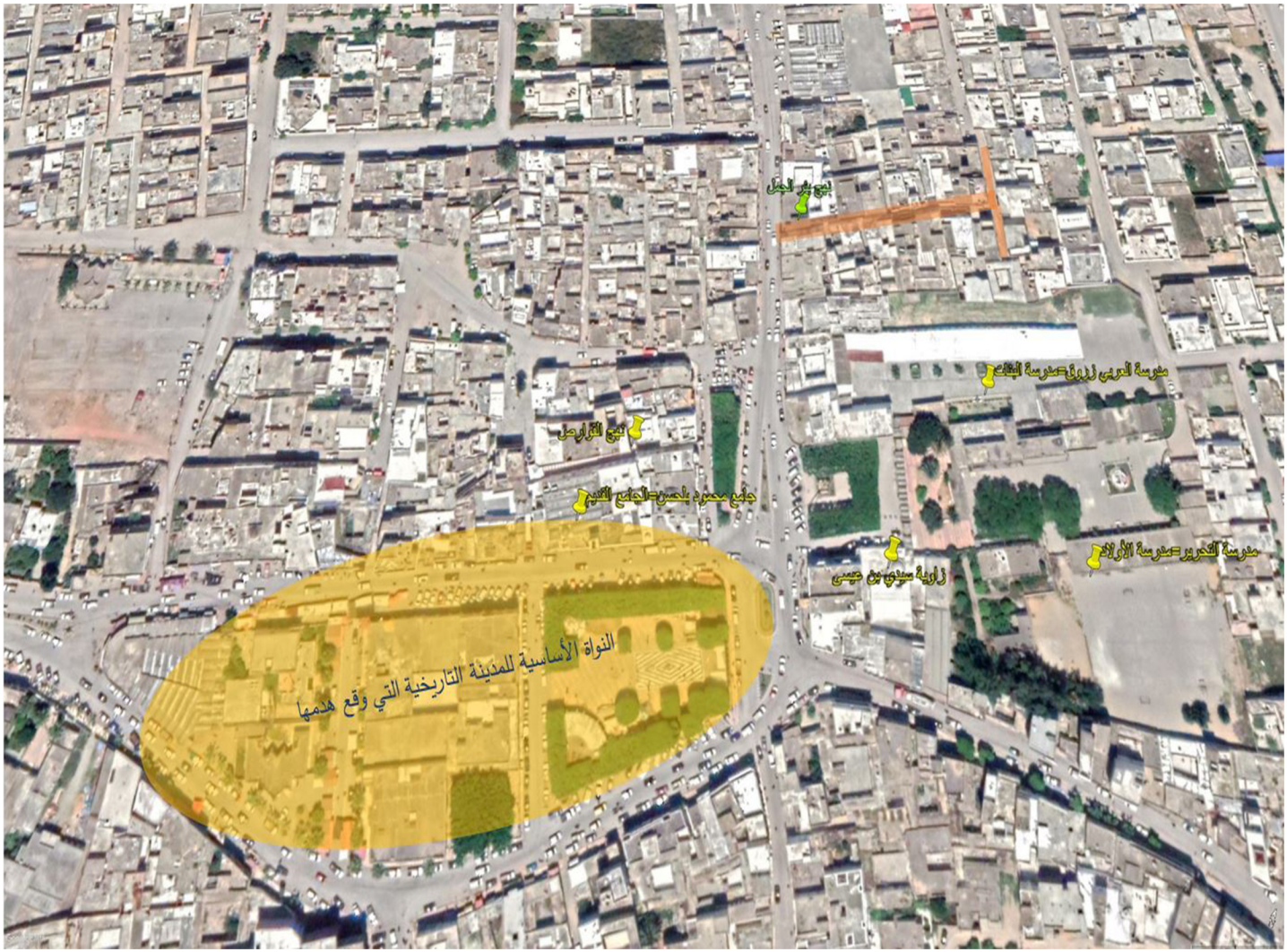

النواة الأساسية للمدينة التاريخية التي وقع هدمها وموقع نهج بئر الجمل

تقديم لبني خلاد

تقع مدينة بني خلاد على بُعد حوالي 45 كلم من العاصمة تونس، وهي جغرافيًا توجد في وسط جنوب الوطن القبلي، وبالتحديد في سهل قرمبالية. هذا الموقع الإستراتيجي، جعل المدينة من جهة في تواصل دائم مع مُدُن وقُرى الوطن القبلي، ومن جهة ثانية في تواصل وثيق مع العاصمة تونس.

يُعتبر سهل قرمبالية من أخصب المناطق في الجمهورية التونسية، وهو ما يسمح بتعاطي جميع أنواع الأنشطة الفلاحية، التي استفادت أيضًا من طقس المنطقة الذي يتميز بكثافة الأمطار نسبيًا بالمقارنة مع المناطق التونسية الأخرى.

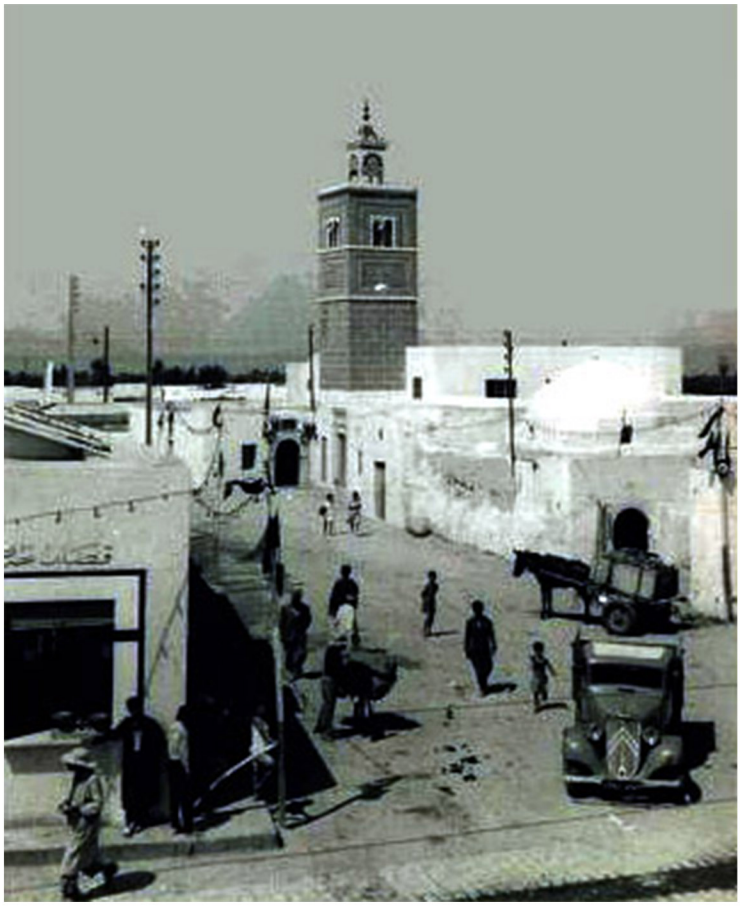

بني خلاد خلال النصف الأول من القرن العشرين

لمدينة بني خلاد تاريخ عريق يعود إلى العصور القديمة، حيث يمكن اعتبار موقع "هنشير المديّنة" أو "شول" CHUL كبني خلاد القديمة أو أقدم تجمع بشري مهم في المنطقة، وهذا الموقع يعود على الأرجح إلى القرن الخامس قبل الميلاد. يقع موقع "المدّينة" غرب بني خلاد على بعد حوالي ثلاث كيلومترات. يذهب بعض الباحثين بالاعتماد على عدد من النقائش إلى أن المدينة عرفت في الفترة الرومانية وتحديدًا في القرن الثالث بعد الميلاد نوعًا من التنظيم الإداري المحلي ومُؤسسات بلدية خاصة بها.

خلال العصر الوسيط يبدو أن المدينة قد عرفت نوعًا من الازدهار الذي لم يتواصل طويلاً نتيجة الغزو الهلالي، الذي أدى إلى دخول العديد من مُدن إفريقية في حالة من الخراب، الذي لم يقع تجاوزها إلا في الفترة الحديثة، التي شهدت إعادة إحياء للعديد من الأراضي الفلاحية التي سيطرت عليها العائلات التُركية الحاكمة وبعض الأعيان المحليين والأندلسيين. في نهاية الفترة الحديثة، يبدو أن البلدة قد أخذت في الازدهار من جديد وبدأ عدد سكانها يزداد حتى وصل في منتصف القرن التاسع عشر إلى ما بين ثمانمئة وألف ساكن.

مع دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد في 12 ماي 1881، استحوذ العديد من المُستعمرين الفرنسيين والإيطاليين بطرق مُختلفة على أراضي فلاحية شاسعة وخصبة في جهة بني خلاد والمناطق القريبة منها، ما جعل مُعظم الأهالي يعانون من العوز والفقر، حيث كانت مُعظم منازل البلدة تفتقر للتيار الكهربائي، المياه الصالحة للشرب، والربط بقنوات الصرف الصحي.

خلال هذه الفترة، أي النصف الأول من القرن العشرين. كانت بني خلاد مدينة مُتعددة الأعراق والجنسيات، فبالإضافة إلى السُكان المحليين، فقد كان يقطن بمدينة جالية يهودية صغيرة، كما كان يوجد بها عدد من الإسبان أو الغجر الذين كانوا يتعاطون بعض الحرف بالإضافة إلى نشاطهم الرئيسي كباعة متوجلين، أيضًا كان يسكن المدينة عدد من الإيطاليين والفرنسيين.

خلال الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا في سنة 1943، كانت بني خلاد مسرحًا لبعض المعارك، فبعد سيطرت قوات المحور المتكونة من الألمان والإيطاليين على تونس، بني خلاد وضواحيها، كانت من نقاط تجمع هذه القوات التي استقرت بالمدينة وجهاتها.

ساهمت بني خلاد في الحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، حيث تم إنشاء شعبة دستورية منذ الأربعينات، وزار العديد من القادة الوطنيين البلدة كالزعيم الحبيب بورقيبة والمُنجي سليم. في 23 جانفي 1952 قام عدد من المُناضلين الوطنيين بإغتيال اليوتنا فاشي قائد الجدارمية بالجهة، حيث اعتبر هذا الحدث الانطلاقة الحقيقية للثورة المُسلحة في تونس.

في 20 مارس 1956 تحصلت تونس على استقلالها، وفي 12 سبتمبر 1958 تم إنشاء بلدية بني خلاد، ومنذ ذلك الوقت عرفت البلدة العديد من المحطات التاريخية الهامة، أي خصوصًا مرحلة التعاضد في الستينات وانعكاساتها على الأنشطة الفلاحية والاقتصادية بالبلدة، ثورة الخبز سنة 1984، وثورة 14 جانفي 2011 وما تلاها من تحولات سياسية كان لها تأثير على بني خلاد.

عمليات التمشيط والإعتقال ببني خلاد بعد إغتيال اليوتنا فاشي

موقع نهج بئر الجمل

يقع "نهج بئر الجمل" أو "نهج عبد القادر عيسى" على الجهة اليسرى من الطريق الرئيسي في اتجاه وسط المدينة. ويحدهُ من الجهة اليسرى زقاق صغير مُتفرع عنهُ، مُغلق من الجهة اليمني ويفتح على الشارع المؤدي "لطريق قربة" من الجهة اليسرى. يُقارب طول النهج الأساسي لبئر الجمل حوالي المئة متر، وعرضهُ ما بين مترين ونصف وثلاثة أمتار. يتفرع عن النهج الرئيسي عدد من الأزقة الفرعية الصغيرة التي تكون مغلقة في نهايتها وتضم عدد قليل من المنازل.

مدخل نهج بئر الجمل من جهة الشارع الرئيسي

عدد من الأزقة المتفرعة عن النهج الرئيسي

تاريخ نهج بئر الجمل

كانت مُعظم المناطق التي تتبع بلدة بني خلاد في مطلع القرن الثامن عشر أراضي فلاحية على مُلك أفراد من العائلة الحسينية والأعيان القاطنين بالحاضرة والمناطق المُجاورة. لكن يبدو أنهُ مع مطلع القرن التاسع عشر قد تزايد الاستقرار بالمنطقة، وبدأت الأراضي الفلاحية القريبة أساسًا من الجامع تتحول إلى مناطق للسكن. في هذا الإطار، نشأ ما يعرف اليوم بزنقة بئر الجمل، والتي كانت حسب شهادات السكان سانية على مُلك أفراد من "عائلة عيسى" الذين يمكن اعتبارهم أول من سكن بالحي.

من خلال بحثنا في وثائق الأرشيف الوطني التونسي، عثرنا في قائمة الهناشير والأراضي والسواني الموجودة ببلدةبني خلاد سنة 1862 على غرس يُسمى "غرس عيسى لعلي بن فرج خديم الله"، وهو ما يمكن أن تكون إشارة للسانية المذكورة. هنا تجدر الإشارة إلى أننا نجد في الوثائق الأرشيفية تملك عدد من الأشخاص يحملون لقب "عيسى" لمنازل وبعض الممتلكات الأخرى، لكن الإشارة التي ذكرناها هي الوحيدة التي وجدنا فيها إشارة إلى غرس بمعنى سانية، تحمل اسم "عيسى".

دائمًا وبالاعتماد على شهادة الأهالي، فإن هذه السانية قد وقع التفريط فيها بالبيع على الشيع على الأقل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث شيد المالكون الجدد منازل مختلفة من حيث المساحة والرفاهة، وبذلك تكونت النواة الأولى لزنقة بئر الجمل وتطورت شيئًا فشيئًا. المُلاحظة الأساسية هنا أن الحي لم يعرف تطورًا كبيرًا من حيث التخطيط خلال الفترة الاستعمارية، وبعد الاستقلال، وحتى اليوم فقد بقي مُحافظًا على التخطيط الأولي الذي يتماهى مع تخطيط أحياء المدينة التقليدية، من حيث وجود نهج ضيق مُلتوي بعض الشيء، يشُق المنازل الموجودة على اليسار واليمين، مع وجود عدد من الأزقة الفرعية.

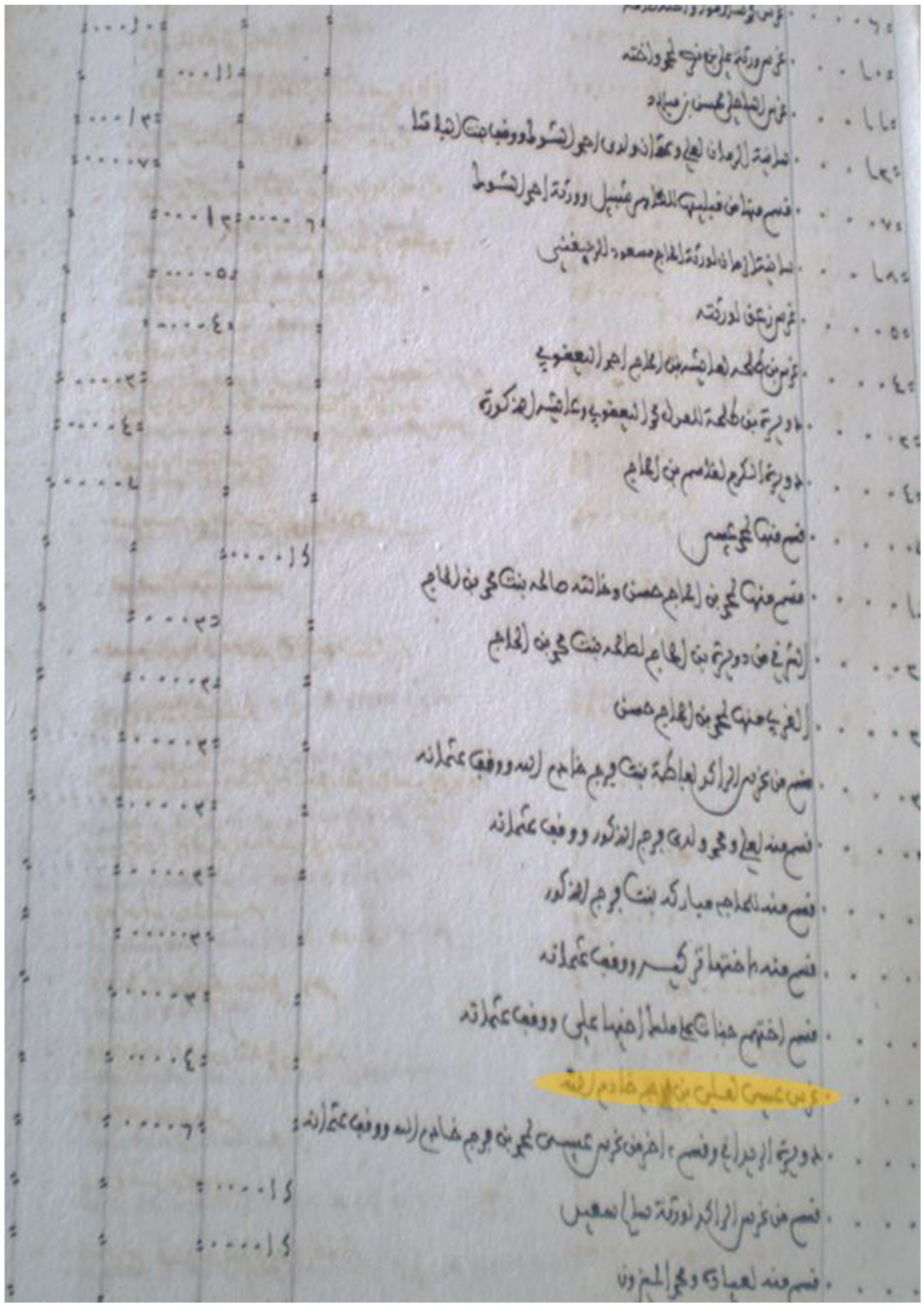

وثيقة من الأرشيف الوطني التونسي حيث يظهر "غرس عيسى"

التسمية

يعرف مُعظم الأهالي في بني خلاد نهج عبد القادر عيسى بإسم نهج أو زنقة بئر الجمل، لكنهم يختلفون حول أصل هذه التسمية، فالبعض يقول بأنها نسبة إلى جمل وبئر الحمام الذي كان يعرف بحمام دار بن ميلاد، ويقع في مدخل النهج على الجهة اليمنى، وهو من أوائل الحمامات بالبلدة. كان يتم استخراج الماء عن طريق الجمل الذي كان يروح ذهابًا وإيابًا بجانب المجرى فيخرج الماء الذي يتم تسخين جزء منه ليستعمله رواد الحمام في عملية الإغتسال.

أما الرواية الثانية، فتذهب إلى أن أصل التسمية، هي أن جملاً قد سقط في بئر أحد منازل الحي، حيث يبدو أن هذا الحدث قد اشتهر في البلدة ومن هناك أطلقت على النهج تسمية "زنقة بئر الجمل".

اليوم لا نجد البئر ولا الجمل، حيث اندثر الحمام ومعهُ الآبار التي كانت موجودة تقريبًا في كُل منزل من أجل توفير حاجيات سكانه من الماء الصالح للشراب، وحاجيات الطبخ والاغتسال، لكن التسمية بقيت شاهدة على أحد أعرق الأنهج في المدينة، ومُذكرة بتاريخه الفريد والمتعدد الروايات.

لافتة نهج عبد القادر عيسى (بئر الجمل)

العمارة

يتفاوت حجم منازل الحي وطريقة تخطيطها من منزل إلى آخر، لكن سواء من خلال المُعاينة الميدانية أو صور الأقمار الصناعية، يمكن أن نُلاحظ أن عددًا هامًا منها مازال يحافظ على الشكل التقليدي، أي وجود مدخل (سقيفة)، تفتح على وسط الدار الذي يكون غير مُسقف، ويُستعمل كمنفذ لدخول الشمس والهواء للغُرف التي تُحيطُ به، كما كان يوجد به في العادة بئر، وتُستعمل أرضيتهُ أيضًا لتجفيف المواد الغذائية التي يتم اعدادها خلال فصل الصيف من أجل مقاومة البرد وقلة الموارد الغذائية الأساسية خلال فصل الشتاء.

أيضًا كانت بعض المنازل ذات المساحة الكبيرة، مكانًا لاجتماع أطفال النهج للعب، وربما كذلك لعب وسط الدار في هذه المنازل دور "قاعة الحفلات" التقليدية لأعراس سكان الحي، فقد كان السُكان مُتضامنين في أعراسهم وأتراحهم، وكان الجميع يهبُّون للمساعدة عند الحاجة، فالجميع يتقاسمون الفرح في المسرات، والحزن في الأوقات الصعبة.

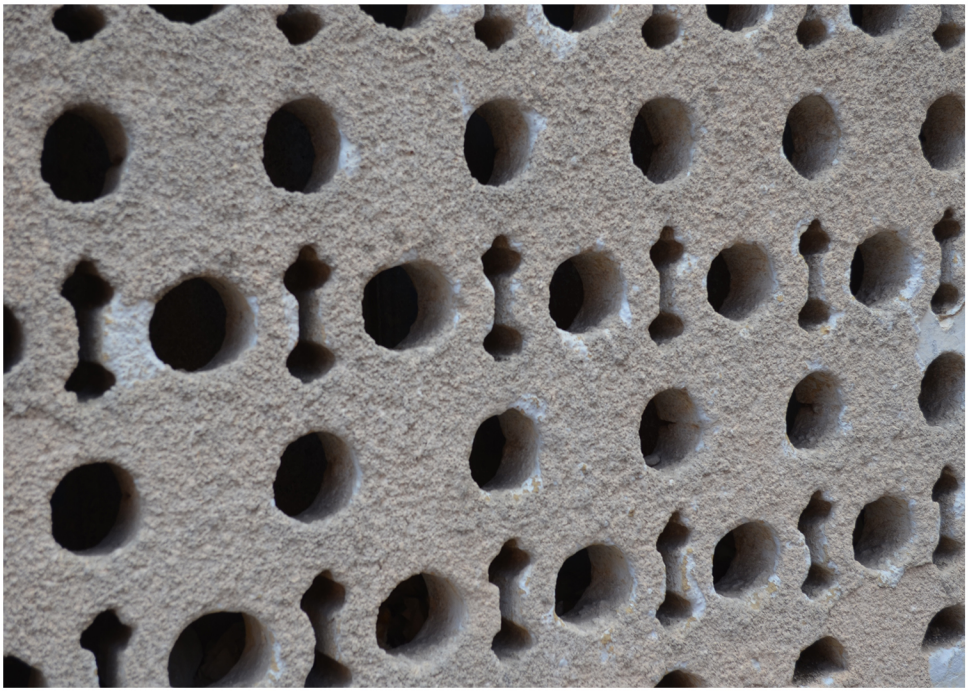

تفصيل لشباك أحد منازل الحي

يتكون النهج من حوالي ثلاثين منزلاً مُعظمها من المنازل التقليدية ذات الواجهات البسيطة المُتكونة من باب وعدد من النوافذ. للأسف العديد من المنازل تم تحوير واجهاتها، وفقدت طابعها التقليدي، لكن تلك التي حافظت على واجهتها الأصلية، وعلى الرغم من وضعية بعضها المُتردية، فإنها تكشف عن عراقة هذه المنازل وعلو ذوق سكانها.

نجد أن بعض الواجهات قد زينت مداخلها بالرخام الذي نُحت عليه عدد من الأشكال الهندسية والنباتية- في حين زُين مدخل آخر بمربعات خزفية ذات أشكال وألوان مُختلفة. هذه الواجهات تعكس عراقة هذه المنازل المُتأثرة بالعمارة الأندلسية والإيطالية التي أثرت في العمارة التونسية.

واجهة أحد منازل الحي

واجهة أحد منازل الحي

أما الأبواب فهي في عدد منها كذلك على الطريقة التقليدية، أي أن الباب الرئيسي ينقسم إلى أربعة أجزاء: بابان، يكون واحد منهما دائم الاستعمال لخروج ودخول السكان والضيوف، في حين يكون الثاني في العادة مغلقًا ويُفتح فقط في أوقات الضرورة، لإدخال الدواب التي كانت تستعمل في الفلاحة والتنقل. نجد على الباب في قسميه المُتحرك والثابت ما يُعرف "بالدقاقة" والتي تكون على شكل يد خماسية من أجل حماية سكان المنزل من عين السوء. في الجهة العلوية من الباب، تجد نافذتين تستعملان في التهوئة وإدخال الضوء للمدخل أو "السقيفة".

على الرغم من الوضعية الصعبة التي عليها الحي اليوم، فنلاحظ تواصل حضور زراعة بعض نباتات زينة أمام بعض المنازل، وهو ما يؤكد المعلومات التي أمدنا بها بعض كبار السن عن عناية السكان الأوائل بنظافة الحي ومحاولة المحافظة على رونقه الخاص من خلال تواتر دهن الجدران بالكذال الأبيض وتحزيمها باللون الأزرق، مع المحافظة على نظافة الأرضية الترابية على الرغم من كل المصاعب، المتعلقة بتصريف المياه المُستعملة.

نباتات زينة أمام أحد منازل الحي

«دقداقة» أحد منازل الحي

السُكان

نهج أو زنقة بئر الجمل، ليس فقط المباني والجدران، بل هو أيضًا وأساسًا سكانهُ البشوشون والمضيافون، الذين قاوم معظمهم الزمن وإغراءات العيش في الأحياء الخرسانية الجديدة والفسيحة، حيث أن بعض العائلات توارثت سكنا الحي منذ ما يجاوز القرن. البعض الآخر خرج وعاد، آخرون سكنوا بصفة حديثة نسبيًا، لكنهم جميعًا أضحوا أبناء الحي، يتشاركون حُب الحي والرغبة في صيانته والمُحافظة عليه.

العائلات التي سكنت الحي:

- دار بريمة
- دار الهدواج
- دار الخياري (دار صالحة عمارة)
- دار محمود الوحيشي
- دار محمد عيسى (دار خالد بن شعبان)
- دار الشبار (دار فاطمة أم هاجر الشاكري "بوشباط)
- دار حسين الشبار المختار
- دار خليل عيسى
- دار صالحة الشبار
- دار حبيب بن شعبان
- دار الكلبوسي
- دار بن عشيبة=دار غميض
- دار الميزون (محمد الميزون)
- دار علي بن قمرة
- دار بفون (الحاج علي حميدة بن ميلاد
- دار حمادي الصغير (دار كركر+دار حمودة+دار حمدة)
- دار حسن بلقاسم بن شعبان
- دار بن ميلاد
- دار شاشية
- دار عمر الكلبوسي
- دار المولدي سعدة (دار وشو)
- دار محمد سالم
- دار جبر الكيلاني- دار عبد القادر عيسى
- دار علي عيسى
- دار حميدة الهرقام
- دار الحاج محمد عيسى
- دار الحاج الهادي عيسى
- دار رحومة عيسى
- دار علي الحمام (أصبحت روضة)
- دار العيشوني الملوكي
- دار الحاج محمد بوزريبة
- دار البادري

كان مُعظم سكان الحي يتعاطون الأنشطة الفلاحية في سوانيهم الواقعة في أحواز البلدة، حيث كانوا يتوجهون في الصباح الباكر إلى أعمالهم التي تختلف من فصل إلى آخر، من حراثة وبذر أو غراسة خلال فصل الخريف، ثم جني للأشجار المثمرة خلال فصل الشتاء، فتقليم الأشجار وجمع الزهر خلال فصل الربيع، ثم السقي والحصاد خلال فصل الصيف.

في المساء، كان يعود رب المنزل وربما أبنائه إلى المنزل، يتحلقون على ضوء شمعة، قنديل أو «بابور» قاز للعشاء ولتجاذب أطراف الحديث. تميز الحي كمعظم بني خلاد في المستوى الاجتماعي بأنهُ يقوم على السلطة الأبوية والمُحافظة. كما كان ما يعرف "بكبار الحومة" هم من يسهرون على حُسن النظام في الحي ويقومون بحل بعض المشاكل والمشاجرات التي يمكن أن تقع بين السكان والأزواج.

لباس السكان كان بسيطًا، ويعكس الحالة المادية المتواضعة أو المتوسطة لسكان الحي كحالة معظم سكان بني خلاد، فقد كانت النسوة في الأيام العادية تلبسن الفوطة والبلوزة، وعند الخروج من المنزل، يتلحفون بالسفساري الأبيض، في حين كان الرجال يرتدون البلوزة ذات اللون الرمادي القاتم أو البرنس والقشابية، أما في المُناسبات والاحتفالات فكانت النسوة كما الرجال والأطفال يتزينون بأفضل ما لديهم من ملابس، سواء الفوطة والبلوزة المخصصة فقط للاحتفالات بالنسبة للنساء أو الجبة والشاشية بالنسبة للرجال.

تفصيل لأحد سكان بني خلاد سنة 1952 يرتدي رفقة ابنه قشابية

شـهد نهـج وسـكان بـئر الجمـل معظـم الأحـداث التاريخيـة التـي عرفتهـا بنـي خـلاد خـلال القـرن العشريـن، فقـد عايشـوا أهـوال الحـرب العاليمـة الثانيـة، وكانـوا يجلـؤون ككل سـكان بنـي خـلاد إلى السـواني المحيطـة بالبلـدة للاختبـاء في الخنـادق مـن الغـارات التـي كان يشـنها الحلفـاء عـلى قـوات المحـور المتمركـزة بالبلـدة. عقـب الحـرب عـاش السـكان ظـروف صعبـة جـدًا، نتيجـة نقـص الغـذاء وتعطـل الأنشـطة الفلاحيـة خـلال الحـرب، وتعطـل نشـاط الأسـواق الأسـبوعية، أي أساسًـا سـوق منـزل بوزلفـة الـذي كان يتـزود منـهُ السـكان. نتيجـة كل ذلـك كان الأهـالي يعيشـون عـلى المسـاعدات أو مـا يعـرف "بنظـام البونـوات" الـذي لم يكـن يوفـر إلا الحد الأدنى من الحاجيات الأساسية للعيش.

كذلـك شـهد النهـج أحـداث 23 جانفـي 1952 فبعـد إطـلاق النـار عـلى اليوتنـا جـون فـاشي، وخـلال الملاحقـات تـم القبـض في مدخـل النهـج عـلى المُناضـل عبـد القـادر عيـسى. أمـا بعـد الاسـتقلال فقـد اسـتقبل النهـج وسـكانهُ الزعيـم الحبيـب بورقيبـة الـذي تنـاول الغذاء خلال زيارته لبني خلاد في منزل الحاج تك (محمد) شاشية.

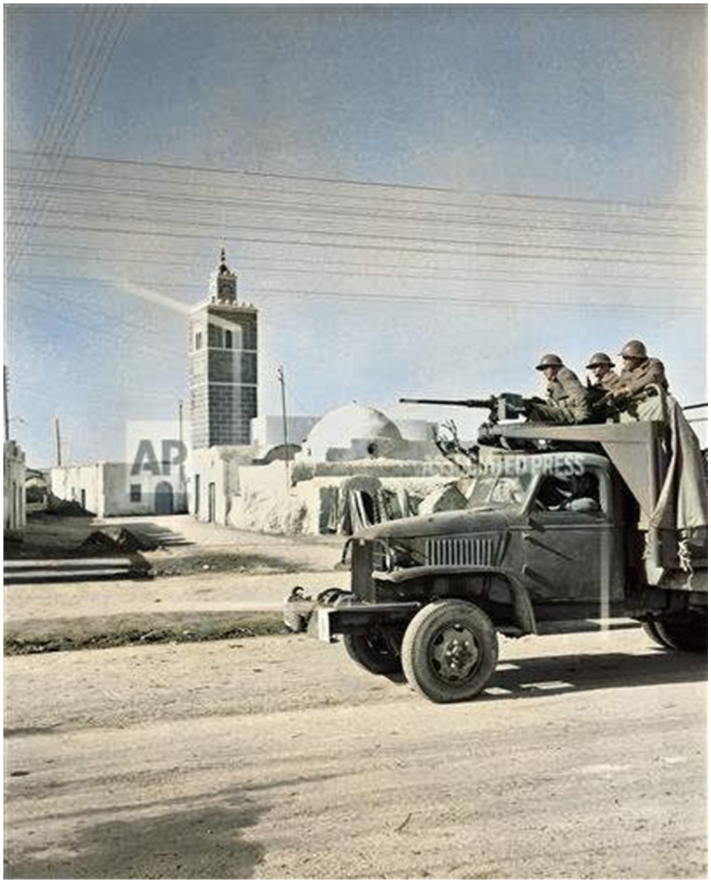

عمليات التمشيط ببني خلاد بتاريخ 26 جانفي 1952

جمعية صيانة بني خلاد

بدعم من

المركز الثقافي الألماني في تونس
Goethe-Institut Tunesien

جميع الحقوق محفوظة
2021